الابعاد الوطنية والدلالات البطولية لمعركة المقارين 1854 بالجنوب الشرقي الجزائري

د. رضوان شافو (جامعة الوادي). الجزائر.

مقدمة:

لقد عرفت الجزائر منذ سنة 1830م أبشع استعمار أوروبي عرفه التاريخ حيث تعرضت لاحتلال عسكري من طرف القوات الفرنسية بعد أن اختلقت الذرائع، وقدمت تبريرات واهية لعملية الاحتلال، حتى تضفي الشرعية على استعمارها للجزائر، وعقب سقوط مدينة الجزائر وإمضاء معاهدة الاستسلام، عملت على التوسع والتغلغل نحو المناطق الداخلية، وصولاً إلى عمق الصحراء الجزائرية، وللإشارة فإن التوسع الفرنسي نحو الجنوب كان لتحقيق عدة أهداف استعمارية، يأتي في مقدمتها ربط المستعمرات الفرنسية في إفريقيا ببعضها البعض، وتسهيل عملية تنقل الجيش الفرنسي، والسيطرة على الطرق التجارية الصحراوية، ولتحقيق هذه الأهداف استخدمت السلطة الاستعمارية عدة وسائل استخباراتية، أهمها البعثات العلمية الاستكشافية والتي زادت من الاهتمام الفرنسي بالجنوب الجزائري، وعجّلت من عملية الغزو العسكري للجنوب الجزائري، خاصة بعد استفادتها من التقارير الاستخباراتية الجغرافية والحضارية للصحراء الجزائرية

وقد كان في اعتقاد الفرنسيين بأن تغلغلهم الى عمق الداخل الجزائري سيكون سهلا عليهم، وخصوصا بعد احتلالهم لمدينة الجزائر سنة 1830، حيث صرح الجنرال "دي مبرمون" قائد الحملة الفرنسية على الجزائر، بانه سيتم اخضاع كل المناطق الجزائرية في ظرف لا يتعدى 15 يوما، الا ان الايام المتتالية اثبت عكس ذلك، اذا انه في كل خطوة تخطوها القوات الفرنسية نحو الداخل، الا وواجهتم مقاومة شعبية شرسة من طرف الاهالي الجزائريين الرافضين للاستعمار الفرنسي، فقد اكدت مختلف المقاومات الشعبية في الشمال الجزائري على تلاحم وتضامن الشعب الجزائري في التصدي للتغلغل الاستعماري، ليلتحق الجنوب الجزائري بركب المقاومة، حينما حاولت القوات الفرنسية اختراق عمق الصحراء الجزائرية في الاربعينات من القرن التاسع عشر الميلادي من خلال واحة الزعاطشة سنة 1849م،حيث رسم اهلها صورة بطولية وصنعوا ملحمة شعبية في قهر الاعداء بقيادة الشيخ اسماعيل بوزيان والحاج موسى الدرقاوي، وأرخوا لمقاومة تجسدت فيها كل معاني النضال والكفاح والصمود امام اعتى قوة عسكرية عرفها التاريخ، الا ان الاصرار الاستعماري على خنق كل انتفاضة شعبية تهدد استقرارهم وتعرقل تغلغلهم، الزم الادارة الاستعمارية على تجنيد كل الوسائل العسكرية البشرية والمادية لتحقيق السيطرة الكاملة على كل المناطق الجزائرية.

الاشكالية: تتمحور الاشكالية الجوهرية للدراسة حول اهم الدلالات البطولية لمعركة المقارين 1854، وما هي ابعادها الوطنية؟

الهدف من الدراسة: تهدف هذه الدراسة الى محاولة استكمال بعض الحلقات المفقودة في تاريخ المقاومة الشعبية بالصحراء الجزائرية وابرازها للرأي العام الوطني من منطلق ان كل ما كتب عن هذا الموضوع لا يعد كافيا مقارنة بدراسات وابحاث تناولت تاريخ المقاومة الوطنية في الشمال الجزائري، هذا بالإضافة الى محاولة بناء التخصص

البحثي للطالب من خلال جعل هذه الدراسة بمثابة خطوة نحو تركيز البحث حول تاريخ الاستعمار الفرنسي في الصحراء الجزائرية ، والسعي الى فهم أبعاده

المنهج المتبع في الدراسة: بالنظر لطبيعة الموضوع محل المعالجة فقد نكون بحاجة لاعتماد المنهج التاريخي والمنهج الوصفي القائمين على ضرورة تجميع المادة العلمية المتعلقة من قريب أو من بعيد بتصوير المشاهد التاريخية ذات الصلة، ومن ثم التعامل معها من منطلق الوصف والتحليل على القدر الذي أتوخى من خلاله الموضوعية التاريخية بغية الوصول إلى جانب من الحقيقة التاريخية بقدر المستطاع.

اولا/ التعريف بمعركة المقارين 1854:

تعود انطلاقة هذه المقاومة الشعبية إلى خريف 1854 عندما راجت أخبار مفادها أن القوات الفرنسية تتأهب للقيام بعمليات عسكرية كبيرة للهجوم على إقليم وادي ريغ وإقليم وادي سوف[504] ، ولما علم سلمان بن علي الجلابي اخر امراء بني جلاب بنبأ تحرك الفرنسيين من بسكرة طلب من الشريف محمد بن عبد الله[505] أن يكون مستعدا لنجدة تقرت في حالة هجوم الفرنسيين عليها، كما أرسل سلمان إلى باي تونس طالبا منه النجدة و المعونة عن طريق أحد أعيان تقرت وهو الشيخ بوشمال[506]، كما راسل ايضا سكان واد سوف و القرى المجاورة لهم ، يحثهم فيها على الجهاد[507]، وفي نهاية شهر نوفمبر كانت القوات الفرنسية بقيادة الرائد مارمي (Marmier) متمركزة في المقارين لتهيئة الظروف المناسبة للهجوم على عاصمة وادي ريغ ، اين اخذوا كل الاستعدادات للهجوم على تقرت، حيث توجهوا في ذات اليوم الى منطقة الطيبات وذلك لقطع امدادات المقاومين الجزائريين القادمين من منطقة وادي سوف ، وفي صبيحة 29 نوفمبر 1854 التحم الجيشان في معركة ضارية بالمقارين[508] دامت من الثامنة صباحا إلى الثانية زوالا، وقد قدر عدد القوات الفرنسية المشاركة في هذه المعركة بـ 250 جندي نظامي

---

[504] إبراهيم مياسي، **الاحتلال الفرنسي للصحراء الجزائرية 1837– 1934م** ،الجزائر، دار هومة،2005، ص 13 .

[505] الشريف محمد بن عبد الله هو إبراهيم بن أبي فارس من مواليد أواخر القرن 18م ، وقد اختلفت المصادر التاريخية في تحديد مكان ميلاده ، لكنه ظهر على الساحة السياسية مند سنة 1841م عندما عينته السلطات الاستعمارية الفرنسية عبر المرسوم الملكي خليفة على الغرب الجزائري ، وهو ينتمي إلى أولاد سيدي احمد بن يوسف فرع قبيلة أهل رو سل قرب عين تيموشنت ، ولقد حاول الجنرال(بيجو) استمالته بهدف التفرغ لعدوانه على دولة الأمير ، إلا انه أحجم عن ذلك ، وبعدها اصبح محمد بن عبد الله يعاني من مضايقات لم يكن يتوقعها من الفرنسيين مما دفع به إلى حمل لواء الثورة ضدهم لمدة تقرب عن ثلاثين عاما ، وبدأ حياته الجهادية بالاستلاء على ورقلة سنة 1857م ، ثم واصل جهاده عبر مختلف المناطق الصحراوية إلى أن توفي عام 1895م بعد كفاح مستمر ضد الاستعمار دام نصف قرن كامل

[506] Ch .Feraud , Ch. Feraud ,« **Les Ben Djallab Sultans de Touggourt** », in R.A, N° 25 , 1881, pp 199- 200

[507] رسالة من سلمان بن علي الجلابي إلى سكان وادي سوف والقرى المجاورة ، وقد تحصلت على هذه الرسالة من طرف أحد الزملاء الباحثين في تاريخ المنطقة الأستاذ معاذ عمراني بتاريخ 2005/08/07.

[508] تقع منطقة المقارين في إقليم وادي ريغ و الذي هو عبارة عن منخفض مستطيل الشكل يتراوح طولة 160 كلم ، و عرضه ما بين 30 و 40 كلم ، و يبدأ شمالا من عين الصفراء قرب بلدة أم الطيور ، و ينتهي جنوبا بقرية (القوق) قرب بلدة عمر جنوب تقرت (1) . و تبعد المقارين عن منطقة تقرت بمسافة تقدر بـ 10 كلم ، و عن مقر الولاية تضم إداريا كلا من بلديي المقارين و سيدي سليمان ، كما أنها تقع في منطقة استراتيجية بحيث يمر بجانبها الطريق الوطني رقم 3 الرابط بين ولايتي بسكرة وورقلة ،أما بالنسبة للموقع الفلكي فهي تقع بين خطى عرض 32 ° و 40° شمالا ، وخطى طول 4 ° و 32 ° شرقا و على علو 55 م من سطح البحر.

و2400 من الاحتياطيين وقوات الصبايحية بقيادة العربي المملوك مكونة من 150 فارس ، ويذهب الفرنسيون إلى أن جيش المقاومين الجزائريين كان يتألف من2000 و400 خيالة[509] ، بينما يذهب المؤرخ أبو القاسم سعد الله الى أن عدد المقاومين شمل 800 فارس وألفين من الفنطازية.[510]

ولعدة عوامل انتصر الفرنسيون في المعركة وانسحب المقاومون الجزائريون بقيادة الشريف محمد بن عبدالله وسلمان بن علي الجلابي نحو تقرت ثم الى وادي سوف وبعدها الى الجريد التونسي، ومهما كان الحال فإنّه في 2 ديسمبر 1854 دخل القائد مارمي (Marmier) تقرت وقد سبقه إليها الملازمان الأولان روز(Rose) وديان فيل (Dyanville) رفقة سرية من الصبايحية ،وفي 5 ديسمبر وصل العقيد ديفو (Desveaux) إلى تقرت على راس الطوابير التي تم جمعها من باتنة و الاغواط وبوسعادة لتنضم إلى بقية الفرق العسكرية المتواجدة بعين المكان معلنا باسم فرنسا احتلال عاصمة وادي ريغ ، وطرد الأسرة الملكية(بني جلاب) التي حكمت تقرت حسب قول اندري فوزان André Voisin أكثر من أربعة قرون، وتنصيب علي باي بن بوعكاز[511] آغا على تقرت وورقلة، والحقت له وادي سوف فيما بعد.[512]

ثانيا/ الدلالات البطولية:

1 – ان اهمية الجغرافية للمنطقة، والقيادة الرشيدة للأهالي بزعامة الشريف محمد بن عبدالله والشيخ سلمان بن علي الجلابي، جعلت الفرنسين يستعدون لإخضاع المنطقة لأكثر من ستة سنوات، وذلك من خلال عملائهم في المنطقة وجواسيهم الذين زاروا المنطقة في شكل رحالة جغرافيين وعلماء انتربولوجيين، حيث كانوا العين الساهرة على تقديم كل المعلومات الكافية والوافية حول اقليم وادي ريغ

2– ان الحماسة الجهادية للمقاومين جعلت الفرنسيين يتكبدون هزيمة نكراء في بداية المعركة، الأمر الذي ادى الى تراجع القوات الفرنسية إلى الوراء، والاستنجاد بالإمدادات العسكرية من النواحي المجاورة، والتي قدمت على جناح السرعة من بوسعادة والاغواط والجلفة وباتنة، حيث تجدد الهجوم الفرنسي على المنطقة، وتمت محاصرة القرية من كل النواحي ومطاردة أهاليها ، مما أدى بقياديي المقاومة كلاً من الشيخ سلمان بن علي الجلابي والشريف محمد عبد الله إلى الانسحاب والتراجع نحو تقرت، وبعدها إلى وادي سوف ثم نحو نفزاوة ، فتوزر بمنطقة الجريد التونسي، من اجل جمع انصار جدد، والاستعداد للمقاومة من جديد، وكان هذا الانسحاب اذاناً بانهزام المقاومين، واحتلال قرية المقارين من طرف القوات الفرنسية تحسباً للدخول الى مدينة تقرت قلعة بني جلاب المحصنة بأسوارها

---

[509] جريدة المبشر ،ع176 ،31 ديسمبر 1854.

[510] ابو القاسم سعد الله ، **الحركة الوطنية الجزائرية 1830–1860** ،ج،1مرجع سابق، ص 361 .

[511] هو علي باي بن فرحات بن سعيد من عائلة بوعكاز الذوادية ، عينه الفرنسيون قائدا على تقرت خلفا لسلطة بني جلاب بعد سقوط إمارتهم ، وقد ادعى هذا القائد أنه من نسل بني جلاب ، ولعله أراد بذلك أن يجعل لنفسه هيبة لدى سكان تقرت ، فاعتماده على هذا النسب يجعل له قيمة كبيرة في مدينة كان الحكم فيها مقتصرا على بني جلاب منذ سنوات طويلة ، أما من الجانب الوصفي لشخصيته ، فهو رجل في حوالي الأربعين من عمره اسود اللحية، اسمر الوجه ، ذو عينيين صغيرتين براقتين ، يتسم بالوقار عموما . انظر : هاينريش فون مالتسان ، **ثلاثة سنوات في شمال غربي إفريقيا** ،تر: أبو العيد دودو ، ج3 ، الجزائر ، الشركة الوطنية للنشر والتوزيع ، 1980 ،ص152

[512] André Voisin , **Le souf monographie d'une région saharienne** , 1985, p 47

العالية، ورغم محاولة المقاوم بوشمال بن قبي احد اعوان سلمان الجلابي الاستماتة في الدفاع عن قرية المقارين ، واعاقة القوات الفرنسية في السيطرة عليها، الا ان قناصة الصبايحية استطاعت ان تحاصر المقاومين في احدى الغابات اين تم القضاء عليهم، مع انسحاب البعض الاخر باتجاه منطقة تقرت والطيبات[513].

3- ان استشهاد 500 شهيد في ميدان المعركة ، وتكبيد الفرنسيين خسائر في الارواح بـ 11 قتيلا و50 جريحا، و9 جرحى من الصبايحية، وخسارة في الاسلحة والعتاد له من الدلالات البطولية التي تؤكد على القوة الايمانية التي اتصف بها المقاومون الجزائريون في ساحات القتال،وعلى الخوف الذي لازم القوات الفرنسية طيلة المعركة، فتجنيد ثلاثة عقداء وتسعة ضباط فرنسين من مختلف الرتب لهو دليل قاطع على الاستماتة التي ابداها المقاومون في التصدي للاحتلال الفرنسي.

4- تجنبا لأرقة الدماء والخوف من المجهول حاولت السلطة الاستعمارية قبل اقتحام مدينة تقرت القيام بمرسلات تفاوضية ،وتمثل ذلك من خلال مراسلات العقيد ديفو إلى بعض الشخصيات الفاعلة بالمنطقة خاصة الموالين لفرنسا ومحتواها أن فرنسا لا تنوي مهاجمة السكان وإنما تريد في نظرها القضاء على سلمان بن علي الجلابي، وبسط الأمن، الا ان فقدان حليفهم عبد الرحمان الجلابي وابنه عبد القادر، اجبرهم على الدخول في مفاوضات مع سلمان بن علي الجلابي من 1852 إلى 1854، حيث تمت مراسلة سلمان الجلابي من طرق القائد العسكري ببسكرة يقترح عليه تحسين العلاقات مع فرنسا مقابل مساعدته على تولي الحكم في تقرت، الا ان سلمان رفض مقترحهم، وكان المقترح الفرنسي ينص على غلق الأسواق التجارية أمام الشريف محمد بن عبد الله ، إلا أن ذلك لم يستمر بسبب إلقاء السلطة الفرنسية القبض على أحد مبعوثيه- أي سلمان- وهو يحمل رسالة إلى محمد بن عبد الله محتواها وضع خطة حربية للتصدي للفرنسيين.

5- كما ان الدلالة البطولية لهذه المعركة تكمن في انه ما كان للقوات الفرنسية ان تحقق انتصارها الا بفضل قوات الصباحية الموالية للسلطة الاستعمارية والمقدرة بـ 150 جندي صبايحي، حيث كانت في الصفوف الامامية في مواجهة المقاومين، لكونهم يعرفون تمام المعرفة الاطار الجغرافي للمنطقة، ولهم دراية بأماكن التموقع والتحصن، والتسلل في وسط الاهالي بدون كشفهم.

6- منطقة وادي ريغ كانت تمثل عقبة امام التوسع الفرنسي في الجنوب الجزائري، وبالتالي فانتصارهم في معركة المقارين اعتبروه انجازا وفتحا عظيما لهم، بعدما كانوا يدركون مدى الصعوبات التي تنتظرهم في حالة فشلهم في اخضاع المنطقة، وبالتالي وعلى خلفية هذا الانتصار العسكري ،قامت السلطة الاستعمارية بعد مرور حوالي شهر، وبالتحديد في 29 ديسمبر باحتفالات رسمية، تغنَّى فيها الشعراء الفرنسيون بانتصاراتهم، وتم تكريم وترقية قادة القوات الفرنسية المشاركة في معركة المقارين ابرزهم: (مارميي Marmier ، كورتيفرون Courtivroin ،

[513] Rapport sur le Combat de Meggarin , livré le 29 novembre 1854 , aux contingents réunis du Cheikh de Touggourt et de Cheikh de Chérif Mohamed ben Abdallâh , in R.AF , n 39 ,1895 , pp155- 159

كافل(Cavel ،وفي ذات السياق قامت السلطة الاستعمارية في 17 مارس 1855 بترقية العقيد ديفو الى رتبة جنرال.

ثالثا/ الابعاد الوطنية:

1- مشاركة الشريف محمد بن عبد الله هو إبراهيم بن أبي فارس في المعركة اعطى بعدا وطنيا ،وهو من أولاد سيدي أحمد بن يوسف فرع قبيلة أهل غسول قرب عين تموشنت، وفي عام 1840 استقر في مدينة تلمسان، وقد اختلفت المصادر التاريخية في تحديد مكان ميلاده ، لكنه ظهر على الساحة السياسية منذ سنة 1841م عندما عينته السلطات الاستعمارية الفرنسية عبر المرسوم الملكي خليفة على الغرب الجزائري ، ولقد حاول الجنرال(بيجو) استمالته بهدف التفرغ لعدوانه على دولة الأمير عبد القادر ، إلا انه أحجم عن ذلك ، وعندما اكتشف أمره عام 1844 غادر تلمسان إلى الإسكندرية ومن هناك اتجه إلى مكة لأداء فريضة الحج، واتصل بعدد من الجزائريين المنفيين والمطرودين والهاربين من الضغط الفرنسي وكان من بينهم " محمد بن علي السنوسي الذي طرد من الجزائر عام 1849، وبدأ حياته الجهادية بالاستلاء على ورقلة سنة 1857م ، ثم واصل جهاده عبر مختلف المناطق الصحراوية إلى أن توفي عام 1895م بعد كفاح مستمر ضد الاستعمار دام نصف قرن كامل.

2- اكدت معركة المقارين ومقاومة اهلها مدى توحُّد الشعب الجزائري وتلاحمه في مواجهة اعداء الوطن، فهذه المقاومة جمعت الجزائريين من الغرب والشرق والشمال والجنوب قبل بدايتها (ورقلة، وادي سوف ، قبائل الارباع بالاغواط، شعانبة متليلي،السنوسية، سي النعيمي والسي الزبير بالبيض، وشعانبة المنيعة)واتباع بوبغلة بمنطقة القبائل بعد فشل مقاومتهم وانسحابهم الى الجنوب كون ان محمد بن عبدالله لم يؤمن يوما بمقاومة تعتمد على إقليم أو جهة معينة من الوطن"

3- حينما فشلت تركت وقعا كبيرا في نفوس الجزائريين ، خاصة دائرة تبسة التي استعدت لإرسال جيش من النمامشة لمساعدتهم ،غير أن السلطة الفرنسية تفطنت لها ، وراحت تراقب هذه التحركات ، ومنعتهم من أي دعم عسكري، وهذا التضامن والتلاحم يؤكد مدى اهمية ومكانة المنطقة عند الشعب الجزائري.

خاتمة :

ما يمكن قوله في الاخير ان هذه المقاومة أثبتت مرة أخرى رفض الشعب الجزائري للتواجد الفرنسي في الصحراء ، كما بينت للسلطات الاستعمارية أن الجنوب الجزائري مثله مثل بقية المناطق الشمالية، فهو قلعة للثوار ومعقل آخر من معاقل المقاومة الشعبية، زادة على ذلك ان هذه المقاومة بل كانت نهاية محلقة من حلقات المقاومة وبداية مسلسل جديد ستكون حلقاته أكثر عنفا و أشد خطورة على تواجد الفرنسيين في الجنوب الجزائري.